

الفصل الثامن

المواقف الإسلامية من العدوان

المواقف الإسلامية من العدوان

د. محمد نور الدين*

مقدمة:

إذا كانت سنة 2008 قد بدأت بحصار غزة وتنفيذ المجازر بحقها فقد انتهت كذلك بأوسع عدوان ابتدئ بمجزرة في 2008/12/27، وأفضى في نهايته إلى أكثر من 1,300 شهيد، وستة آلاف جريح، ودمار واسع في الأبنية والمؤسسات والبنى التحتية. وإذا كانت القضية الفلسطينية؛ فلسطينية وعربية وإسلامية وإنسانية، فإن المواقف من العدوان على غزة في نهاية 2008 ومطلع 2009 أفرزت ردود فعل متفاوتة في هذه العوالم. فعلى صعيد العالم الإسلامي غير العربي انكشفت ردود الفعل على صورة متوقعة وطبيعية لدى البعض لجهة دعمها وتضامنها؛ إيران، وعلى صورة أيضاً متوقعة، ولكن كانت أكبر بكثير من المتوقع؛ تركيا. وإذا كان التضامن قد تجلى أيضاً في دول إسلامية أخرى مثل: ماليزيا وإندونيسيا، فإن الانقسامات على مستوى المؤسسات مثل منظمة المؤتمر الإسلامي حال دون قيام هذه المنظمة بدورها، وبدت عاجزة، ودون طموحات المسلمين في أقدس قضاياهم؛ أي القضية الفلسطينية.

أولاً: الموقف التركي:

1. الموقف التركي في ضوء التصريحات الرسمية والتظاهرات الشعبية:

كانت ردّة الفعل التركية على العدوان غاضبة جداً، وغير مسبوقة، على المستويين الرسمي والشعبي. وبرز في هذا الخصوص مواقف رئيس الحكومة التركية رجب طيب أردوغان؛ إذ لم يتوقف على امتداد أيام العدوان من توجيه النقد الحاد للممارسات الإسرائيلية، والذي وصل ذروته في حادثة ملتقى دافوس Davos Forum (World Economic Forum)، وقاد إلى توتر غير مسبوق في العلاقات التركية - الإسرائيلية.

* أستاذ التاريخ واللغة التركية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية، باحث متخصص في الشؤون التركية.

ندد أردوغان بالعدوان الإسرائيلي، ودعا إلى إنهائه فوراً معتبراً بأنه "قلة احترام لتركيا". وفي أول تصريحاته فور بدء العدوان قال أردوغان إنه يريد أن يتقاسم الأحران مع أهل غزة¹، مضيفاً: "إن قتل الأبرياء والناس الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، والأطفال، والنساء، وتدمير المباني السكنية المدنية، واستخدام القوة المفرطة هو وضع لا يمكن القبول به". وأوضح أردوغان إنه:

من خلال عملية الوساطة بين سوريا وإسرائيل كانت تركيا تتجاوب مع مطلب تذليل الصعوبات التي تعترضها. وقد عملنا على امتداد شهور من أجل ذلك. وقبل ثلاثة أو أربعة أيام فقط جاء رئيس حكومة إسرائيل إيهود أولمرت لبحث إمكانية القيام بجولة خامسة من المفاوضات، وبالرغم من ذلك جاءت هذه العملية [ضدّ غزة]. التي هي عدم احترام لتركيا. أنا مضطر لقول ذلك... أنها عملية طويلة المدى... والقتل والتدمير هو جريمة إنسانية خطيرة.

وأضاف "إن هذا النوع من العمليات لن يخدم السلام. ويجب أن يرى كل واحد ذلك. إن هذه العمليات، في مرحلة تتكثف فيها جهودنا للسلام ونحاول تطوير قنوات الحوار ووحدة العمل، أُلقت حتماً ظلالاً على جهود السلام". وقال إن هذه العمليات التي أثارت غضب العالم الإسلامي لن تحلّ مشكلات المنطقة. وفي إشارة إلى تقاعس الغرب، وازدواجيته قال أردوغان: "أريد أن يقارب بقية العالم غير الإسلامي المشكلة بشكل أكثر حساسية. ويجب ألا ننسى أن العنف يولد العنف".

ودعا أردوغان "إسرائيل" إلى العودة عن هذا الخطأ، وإلى وقف العمليات الجوية فوراً. وقال إن تركيا ستواصل وبحزم تقديم المساعدات إلى الإخوة الفلسطينيين. ودعا المجتمع الدولي إلى عدم البقاء صامتاً ومن دون ردّة فعل على هذه المأساة الإنسانية. وترحّم أردوغان على الضحايا الفلسطينيين متمنياً الشفاء للجرحى. وقال إنه أبلغ عبر وزير الصحة استعداد تركيا لاستقبال كل أنواع الجرحى للعلاج.

وأعدت المصادر التركية غضب أردوغان من "إسرائيل" إلى أن إيهود أولمرت كان قد زار تركيا في 2008/12/22، أي قبل أربعة أيام فقط من بدء العدوان على غزة، وقد وعد أولمرت كلا من أردوغان والرئيس التركي عبد الله غول Abdullah Gul بالألا تشهد غزة مأساة إنسانية. وجاء العدوان تكديباً لوعد أولمرت، وهو ما اعتبره الأتراك خداعاً، واستخفافاً بدور تركيا الوسيط بين سورية و"إسرائيل"، وهو الأمر الذي أظهر تركيا كما لو أنها على علم مسبق بالعدوان، بل موافقة عليه.

وبعد ثلاثة أيام من العدوان كان لمجلس الأمن القومي التركي الذي اجتمع في 2008/12/30 موقف لافت؛ إذ دعا في بيان أصدره إلى وقف فوري للعمليات العسكرية الإسرائيلية ضدّ غزة، كما دعا الفلسطينيين؛ أي فتح وحماس، إلى التوحد².

وفي استتباع للموقف التركي المعارض للعملية العسكرية الإسرائيلية وصل وزير الخارجية المصري أحمد أبو الغيط إلى أنقرة في 2008/12/29 من أجل بحث إمكانية قيام تركيا بوساطة في الأزمة التي ترتبت على العدوان الإسرائيلي، وقد تقرر أن يقوم أردوغان بزيارة إلى سورية والأردن والسعودية ومصر، بدءاً من 2008/12/31. ورأى مراقبون أترك أن زيارة أبو الغيط هدفت إلى إيجاد مخرج للمأزق العربي، ولا سيّما المصري، الذي بات غير قادر على أن يكون وسيطاً بعدما وقفت مصر ضدّ حماس، ومنعت فتح معبر رفح ما أدى إلى تضيق الخناق الإسرائيلي على فلسطينيي غزة. غير أن مصادر تركية أخرى قالت إن مصر حاولت بزيارة أبو الغيط إلى أنقرة أن تمنع تركيا من الذهاب بعيداً في انتقاد "إسرائيل"، والدفاع عن حماس، لأن هذا الأمر يحرج بعض الدول العربية في سياق ما يعرف بمحور الاعتدال.

استتبع زيارة أبو الغيط إلى أنقرة قيام رئيس الحكومة التركية أردوغان بجولة عربية للسعي إلى وقف نار فوري في غزة، وفتح المعابر، وإرسال المساعدات الإنسانية. وشملت الجولة التي بدأت في نهاية العام كلاً من سورية، والأردن، ومصر، والسعودية كما التقى أردوغان الرئيس الفلسطيني محمود عباس، في الأردن، ورئيس المكتب السياسي لحركة حماس خالد مشعل، في سورية. وعاد أردوغان من دون نتيجة، وأطلق بعد عودته إلى تركيا في 2009/1/4 تصريحات حادة ضدّ بدء "إسرائيل" المرحلة الثانية من عدوانها على غزة؛ أي العملية البرية مساء 2009/1/3، وقال أردوغان في اجتماع في أنطاليا، جنوب تركيا، إن أهات القتلى من أهل غزة لن تبقى في مكانها، وإنه لن يكون إلا مع المظلومين. وقال: إن "إسرائيل" ستغرق في دموع الأطفال. واعتبر أردوغان في وقت لاحق أن مجازر "إسرائيل" في غزة لطفة سوداء على جبينها، ورأى أن الإسرائيليين لن يفلتوا من محاكمة التاريخ لهم³.

وبدوره أطلق الرئيس التركي عبد الله غول مواقف تدين العدوان الإسرائيلي، وقال: إنه الظلم بعينه والوضع في غزة يحرق قلب كل إنسان. لكن غول قال: إنه لا لزوم لأن تطلق حماس الصواريخ، وإنه أبلغ ذلك لقادة حماس. وبرز موقف لافت لوزير العدل

التركي محمد علي شاهين Mehmet Ali Şahin⁴، عندما وصف "إسرائيل" بأنها "المحرّضة الأولى للإرهاب العالمي، وما دام هذا التحريض مستمراً، فلا يمكن للمعركة ضدّ الإرهاب أن تنجح". وقال إن كلمة "مجازر" قليلة في وصف ما يجري في غزة، معتبراً أن تركيا "تقوم بمسؤوليتها التاريخية و[رئيس الحكومة] أردوغان يهرع من مكان إلى آخر للبحث عن حلّ".

ويمكن اختصار الموقف التركي من العدوان على غزة في أسبوعه الأول كما يلي: وقف فوري لإطلاق النار من جانب "إسرائيل" وحماس، وفتح جميع المعابر إلى غزة، وإرسال المساعدات الإنسانية إلى داخل القطاع.

وبما أن تركيا أصبحت منذ بداية سنة 2009 عضواً غير دائم لمدة سنتين في مجلس الأمن، قال أردوغان إنه سيحمل موقف حماس ومطالبها إلى مجلس الأمن. ويذكر أن معظم مواقف أردوغان من العدوان الإسرائيلي جاءت خلال مهرجانات شعبية ذات صلة بالحملة للانتخابات البلدية المقررة في 2009/3/29 ما أسهم في إيجاد تفاعل بين المواقف الرسمية، والرأي العام.

تجسد هذا الأمر على الصعيد الشعبي بصورة معبرة وواسعة. فقد عمّت التظاهرات، والاعتصامات الاحتجاجية كل المدن التركية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب مطالبةً بوقف العدوان. وكانت أكبر تلك التظاهرات على الإطلاق تلك التي نظّمها حزب السعادة التركي الذي يدين بالولاء لنجم الدين أربكان Necmettin Erbakan، وأكثر من 150 منظمة أهلية، وشارك فيها أكثر من مليون شخص احتشدوا في ميدان جاغليان في إسطنبول في 2009/1/4، ودعوا الجيش التركي للذهاب إلى غزة ليدافع عنها. وحمل المتظاهرون في التظاهرات المتفرقة صوراً لبوش، وأولمرت ورشقوها بالأحذية تيمناً برشق الصحفي العراقي منتظر الزيدي الرئيس الأمريكي جورج بوش بالحذاء أثناء زيارة الأخير إلى بغداد في أواخر سنة 2008. كما أقيمت صلوات الغائب على أرواح شهداء غزة في معظم المدن التركية، ولا سيّما بعد صلوات الجمعة. ودعا الكتّاب الحكومة إلى إلغاء الاتفاقيات الثنائية مع "إسرائيل"، ومنع الطائرات الإسرائيلية من التدريب في سماء الأناضول. ومن أبرز تداعيات العدوان انفراط عقد جمعية الصداقة البرلمانية التركية - الإسرائيلية باستقالة كل النواب الأتراك الأعضاء فيها. وتحركت مجموعة

من النساء التركيات تحت اسم "نساء ملتقيات" وأصدرن بياناً يدعو الرئيس التركي إلى بذل جهده لدى مصر تحديداً لإنهاء معاناة أهل غزة وإنقاذهم من القتل، والسحق الوحشي، والجوع والعذاب.

ولم يتردد أردوغان، في معرض إدانته للسلوك الإسرائيلي، من التذكير بأنه حفيد العثمانيين الذين استضافوا اليهود، بعد سقوط غرناطة سنة 1492، على هذه الأرض. كما دعا أردوغان في تصريحات أخرى إلى طرد "إسرائيل" من الأمم المتحدة. وقد ردت ليفني على دعوة أردوغان هذه بالقول إن أردوغان واقع تحت ضغط الرأي العام التركي.

ورغم تباين المواقف بين تركيا، والدول الأوروبية، وبعض الدول العربية؛ فقد شاركت بشخص رئيسها عبد الله غول بمؤتمر شرم الشيخ الذي انعقد في 2009/1/18. لكن غول لم يذهب مع بقية زعماء الدول المشاركة الأوروبية إلى "إسرائيل" مباشرة بعد الاجتماع، وقال غول: "لماذا أذهب؟ لقد ذهبوا لإظهار دعمهم لإسرائيل. نحن لا علاقة لنا بهذا الموضوع"⁵. وذكرت المعلومات أن غول لم يتلق في الأساس دعوة من أولمرت للزيارة احتجاجاً على مواقف تركيا من "إسرائيل". وذكر وزير الخارجية التركي علي باباجان Ali Babacan إنه "حتى لو وجهت دعوة لم نكن لنلبّيها".

ورغم وقف إطلاق النار فجر الأحد 2009/1/18 واصل أردوغان انتقاد "إسرائيل" والغرب، وهذه المرة من قلب بلجيكا. وخاطب أردوغان الجالية التركية في بلجيكا موجهاً كلامه لـ "إسرائيل" قائلاً: "هل غزة أرضكم؟ ماذا تفعلون هناك؟ إن رئيس دولة فلسطين يقول إن ثلثي أراضي إسرائيل لنا. لذا يجب الانتباه لذلك، وأتمنى أن تلتزم إسرائيل بوقف النار". وكان أردوغان يخاطب عشرة آلاف تركي ذهبوا للقاءه في مدينة هاسيلت البلجيكية. وانتقد أردوغان ازدواجية المعايير التي يطبقها الغرب "لا حقوق الإنسان، ولا الحق، ولا القوانين لها أي مكان منذ ثلاثة أسابيع. مجلس الأمن يتخذ قراراً بوقف النار، لكن إسرائيل لا تطبقه، فهل اتخذت أية عقوبات؟ كلاً. نحن تهمنا النتيجة. لماذا هذه الازدواجية في المعايير؟". وقال أردوغان: "إن إسرائيل تقول إنها حققت أهدافها. ما هي هذه الأهداف؟ هل هي قتل الأطفال والمدنيين؟ إن مشاعري مع هؤلاء الأطفال. ليس لأنني مسلم، بل لأنني إنسان. لقد استخدموا القوة المفرطة. فهل غزة بلدكم أو أرضكم؟ أي عمل لكم هناك؟".

وردًا على الاتفاقية الأمنية التي وقعت بين "إسرائيل" والولايات المتحدة التي تضمنت مراقبة حلف شمال الأطلسي لوصول السلاح إلى غزة براً، وبحراً، قال أردوغان: إن تركيا، وهي عضو في الحلف، لن ترسل قوات إلى غزة.

وجدد أردوغان دعمه لحماس قائلاً: إنه يجب احترام نتائج الانتخابات التي أوصلت حماس إلى السلطة⁶. وقال إن حماس وحلفاءها حصلوا على 75% من الأصوات، وإذا لم نحترم النتائج فستعرض الديمقراطية للأذى، وقال: إن اعتقال "إسرائيل" لنواب من حماس منتخبين لا ينسجم مع الديمقراطية. ونقل أردوغان عن مسؤول إسرائيلي كبير قوله: إنه إذا أطلقت "إسرائيل" سراح النواب المعتقلين، فهذا من شأنه أن يُقلق كثيراً الرئيس محمود عباس.

وانتقد أردوغان بشدة الموقف الأوروبي من غزة، وقال إن أوروبا هرعت منذ اللحظة الأولى إلى جورجيا عند اندلاع النزاع مع روسيا، أما في غزة فلم يصلوا إلا بعد عشرة أيام. وفي تعبير قوي عن الموقف التركي قال مستشار أردوغان أحمد داود أوغلو Ahmet Davutoglu إن تركيا تتحرك في المنطقة على أساس أنها "قدر المنطقة وضميرها"، وقال إن استبعاد حماس عن المفاوضات هو استبعاد للشعب الفلسطيني، لأن الشعب هو الذي اختار حماس⁷. وقال داود أوغلو إن موافقة حماس على وقف النار جاء نتيجة جهود تركية.

ولخص داود أوغلو الموقف التركي كما يلي⁸:

أ. تدخلت الدبلوماسية التركية منذ اللحظة الأولى للعدوان على غزة، ولعبت دوراً مهماً في وقف إطلاق النار. وقد تواصلت تركيا مع جميع الأطراف المعنية من دون استثناء من مصر إلى الرئيس محمود عباس وحماس و"إسرائيل" وفرنسا ودول أوروبية أخرى.

ب. بخلاف كل الدول الأخرى كانت تركيا الدولة الوحيدة التي استطاعت التواصل مع حماس، وبالتالي إعلان وقف مزدوج للنار. ولم تستبعد تركيا عن هذه المبادرة اللاعبين الآخرين مثل: مصر وفرنسا. بل إن مصر بالذات أرادت من تركيا أن تتولى ضمانته حماس في مفاوضات وقف النار. وفي النهاية كانت تركيا هي البلد الذي ضمن قبول حماس بوقف النار.

ج. معنى ذلك أن تركيا كانت البلد الذي ملأ الفراغ، وتولت بصمت وبعمق مسؤولية أن تعكس مواقف سورية وحماس. ولم تكن تركيا مجرد ساعي بريد، بل كانت عاملاً في إقناع حماس ببعض المواقف. ولو لم تقم تركيا بهذا الدور، لكان وقف النار من جانب واحد، هو "إسرائيل"، عرضة للانهيال في أي لحظة.

د. تعتقد تركيا أن حماس يجب أن تشارك في العملية السياسية. وهذا مرتبط باستمرار وقف النار، ثم بالمصالحة بين الرئيس محمود عباس وحماس. وتركيا تعمل على هذا الخط، وهي على مسافة واحدة من الرئاسة الفلسطينية وحماس.

هـ. لم تقطع تركيا تواصلها مع "إسرائيل". ورغم مواقف أردوغان الحادة فإن سفير تركيا في "إسرائيل" التقى بإيهود أولمرت، ومسؤولين إسرائيليين آخرين.

و. وبشكل مواز فقد استمر التواصل التركي مع إيران، وساهمت التحركات التركية في إبقاء إيران خلف الستار، وصامته إلى حد ما. ولو أن إيران تدخلت بشكل ما أثناء العدوان الإسرائيلي لكان الوضع مختلفاً، ولكانت الولايات المتحدة تدخلت أيضاً.

ز. انطلاقاً من هذه الصورة لا يوافق المسؤولون الأتراك على النظرة التي تقول بأنهم منحازون إلى حماس، وإنهم يبتعدون عن الغرب، ويرون أن هذا الادعاء خاطئ جداً؛ إذ أن العلاقات التركية مع الغرب ليست موضع مناقشة وهي ثابتة.

وكرر باباجان موقف أنقرة من حماس بالقول: إنه لا حل من دون حماس، ولا نتيجة من مخاطبة الرئيس محمود عباس فقط. وعن الدور المصري قال باباجان: إن تركيا لا تنافس أحداً، بل قلنا للمصريين: "ليس المهم من يكون في الواجهة. المهم وقف إطلاق النار فلنعمل سوية. فكان جواب المصريين: حسناً. وعليه فقد تلا ذلك وصول وفد حماس إلى القاهرة. وكان هذا أمراً مهماً؛ إذ نجحنا في إعادة التواصل بين مصر وحماس". وقال باباجان: إن مصر على الرغم من دورها الوسيط، فهي في الوقت نفسه جزء من القضية.

وإزاء الموقف التركي من العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة فقد تحرك اللوبي المناصر لـ "إسرائيل" في الولايات المتحدة ووجه قاداته رسالة إلى أردوغان يتهمونه فيها بتشجيع نزعة معاداة السامية في تركيا، وطالبوه باتخاذ إجراءات تكبح هذا التوجه.⁹

وكان لافتاً بعد ذلك تصريح وزير خارجية تركيا من أن على حماس أن تختار بين أن تكون منظمة مسلحة أو حركة سياسية. ورأى مراقبون أن هذا الموقف جاء محاولة لتخفيف الضغوط الغربية على تركيا، ورسالة إلى الغرب من أن تركيا ما تزال على مسافة من كل الفرقاء. وأمام التساؤلات الكثيرة التي ظهرت داخل تركيا، وخارجها حول الموقف التركي، وما إذا كان هناك تحول جذري عن سياساتها السابقة، فقد اضطر أحمد داود أوغلو في وقت لاحق إلى إعادة شرح سياسات بلاده تجاه غزة في لقاء خاص مع صحفيين أترك محددًا النقاط التالية¹⁰:

أ. لا توجد أولوية واحد في السياسة الخارجية لتركيا، وإنما عدة أولويات. وبسبب الموقع الجيو-استراتيجي لتركيا فيجب تقييم هذه الأولويات تبعاً للقضايا، والظروف الحاصلة في العالم والمنطقة.

ب. لقد اتبعت تركيا خلال الحرب الباردة، وفي السنوات التي تلتها سياسات مرتبطة بالمحور الغربي. وتركيا اليوم بلد موجود داخل التحالف الغربي، وتعمل على التكامل مع أوروبا. لكن التطورات، وتغير التوازنات الحاصلة في العالم وفي المنطقة، تتطلب قيام تركيا ببعض التغييرات في سياستها الخارجية، ولا يجب توقع أن تبقى تركيا مرتبطة بمحور واحد في كل قضية.

ج. إن تركيا لا تتبع فقط سياسة فاعلة، بل تسعى لمنع التطورات السلبية في الوقت نفسه عبر سياسة أكثر فاعلية. وفي هذا الإطار تولت تركيا مهام وساطات كثيرة. وهذا يظهرها كقوة إقليمية.

2. حادثة ملتقى دافوس:

تعدّ حادثة ملتقى دافوس الاقتصادي التي حصلت مساء 2009/1/29 العلامة الأبرز التي عكست موقف أردوغان وتركيا القوي من العدوان الإسرائيلي على غزة رغم مرور عشرة أيام على انتهائه. ففي ذلك اليوم¹¹، تساجل الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز مع رئيس الحكومة التركية أردوغان في جلسة خصصت للوضع في غزة ضمن فعاليات ملتقى دافوس الاقتصادي الدولي في سويسرا. وقد شارك في الجلسة الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون Ban Ki-moon، وأمين عام جامعة الدول العربية عمرو موسى، وأدارها الصحفي الأمريكي ديفيد إغناطيوس David Ignatius.

وتحدث أردوغان في الجلسة قائلاً إنه :

قبل الحديث عن جهود السلام الحالية يجب أن نقول إننا لا نتحدث عن وضع قبل أربعين سنة، بل عن وضع بدأ في حزيران / يونيو 2008. كان هناك وقف لإطلاق النار. انتهت التهدة، ولم يطلق أي صاروخ على إسرائيل، وكان على إسرائيل أن ترفع الحصار. غزة سجن كبير في الهواء الطلق. ولم يسمح بدخول حتى صندوق بندورة واحد بسبب إغلاق المعابر. أنا ذهبت إلى إسرائيل. جعلوني انتظر، أنا رئيس الحكومة، نصف ساعة عند أحد المعابر من أجل الدخول... فيما نحن لا نعامل الدبلوماسيين الذين يأتون إلينا بهذه الطريقة. وإذا سألت أولمرت عما إذا كان من قتلى إسرائيليين من صواريخ حماس، فأجاب: لا، لا يوجد. وبعد نهاية التهدة بدأت عمليات قتل الفلسطينيين. لقد أرسلنا مساعدات إنسانية إلى غزة ولم تسمح إسرائيل بإدخالها لمدة 15 يوماً.

وذكر أردوغان أن أولمرت رفض عملية تبادل أسرى مع حماس قائلاً: ”إن محمود عباس يرفض... ولكن رأينا ماذا حصل: 1,200 قتيل“. وأضاف أردوغان متسائلاً:

هل تمتلك حماس ذرة واحدة من أسلحة الدمار الشامل الذي تمتلكه إسرائيل؟ إذا كنت أعرف شيئاً، فهو أنه لا يوجد. لقد رفضت إسرائيل الاعتراف بالقرار 1860. ودمرت مباني الأمم المتحدة، والمدارس التابعة لها... وماذا فعلت البشرية إزاء ذلك؟ وقفت تتفرج. شرط السلام في العالم، هو السلام في الشرق الأوسط. ويجب هنا الاعتراف بخيار الشعب الفلسطيني الذي صوت لكتلة الإصلاح والتغيير [التابعة لحماس]. لأن الاستمرار في التحدث إلى عباس فقط لن يحل المشكلة.

ثم كان دور بيريز في الكلام فوجه الاتهام لحماس محملاً إياها مسؤولية العنف في غزة، ومدافعاً عن رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس. وخلال كلامه كان بيريز ينظر إلى أردوغان بحركات عصبية من يديه، وبنبرة مرتفعة متهماً أردوغان بأنه لا يعرف الوضع في غزة جيداً، وأن الرئيس المصري حسني مبارك يعرف أفضل منه ماذا يجري.

وفور انتهاء بيريز من كلامه طلب أردوغان الرد، فيما حاول إغناطيوس منعه بحجة نفاذ الوقت المخصص. إلا أن أردوغان أصر على الرد، ووصف بيريز بأنه يعرف القتل جيداً، وبأنه يتكلم بخلفية المذنب المتهم. وخاطب أردوغان بيريز قائلاً:

يا سيد بيريز، أنت أكبر مني في العمر، لكن صوتك كان مرتفعاً كثيراً. أنا اعرف أن ارتفاعه بهذا الشكل هو تعبير عن نفسية متهم. وفيما يتعلق بالقتل فأنت تعرفه جيداً جداً. وأنا اعرف جيداً كيف قتلتم الأطفال عند الشاطيء. ويوجد رؤساء حكومة عندكم يتباهون بأنهم يشعرون بالفرح عندما يدخلون غزة على ظهر الدبابات. وأنا أعيب على من يصفقون لهذه المظالم [في إشارة إلى تصفيق الحضور لكلمة بيريز].

وعلى الرغم من محاولة مدير الجلسة إسكات أردوغان عدة مرات، ومنعه من مواصلة كلامه، فقد أصر أردوغان على مواصلة الكلام، واستشهد بمقاطع كانت معه في ورقة أخرجها من الملف الذي معه، وفيها آيات من التوراة حول تحريم القتل. وقال أردوغان: "لكن هنا يوجد قتل"، واستشهد بأقوال لباحثين يهود في جامعة أكسفورد وصفوا "إسرائيل" بالبربرية، وأنها تحولت إلى دولة جانحة. وأضاف "بالنسبة لي انتهى دافوس، ولن أعود مجدداً. لقد تكلم بان كي مون 6 دقائق، وتكلمت أنا 12 دقيقة، وعندما وصل عمرو موسى إلى الدقيقة العاشرة أوقفه مدير الجلسة عن الكلام، أما بيريز فقد تكلم 25 دقيقة".

وبعد هذا ترك أردوغان مقعده مغادراً الجلسة فيما بقي أمين عام جامعة الدول العربية في مكانه، ولم يقند بأردوغان وينسحب، وهو ما أثار سخط الشارع العربي. ويضاف إلى ذلك مشاركته في جلسة تواجد فيها رئيس دولة ما زالت تعتبر عدواً بالنسبة لمعظم دول المنظومة العربية التي يمثلها.

ولدى عودته إلى إسطنبول كان في استقبال أردوغان في المطار الآلاف من الأتراك الذين وصفوه بأنه "فاتح دافوس" و"الزعيم الجديد للعالم". ولعل أهم ما قاله أردوغان في مطار إسطنبول بعد عودته إلى تركيا فجر الجمعة 2009/1/30 هو:

إنني لست ديبلوماسياً متقاعداً لأتكلّم بلغة ديبلوماسية، بل واحد من الذين جاؤوا من السياسة. أنا لا أعرف اللياقة الديبلوماسية، ولا أريد أن أعرفها. أنا لست زعيم قبيلة، بل رئيس حكومة تركيا. والسياسي يجب أن يعرض موقفه بوضوح، وقد فعلت ما يجب القيام به. إن أي رئيس للوزراء في تركيا كان ليتخذ الموقف نفسه. إن المسألة اعتبار واحترام تركيا، ولن أسمح لأحد بأن ينتهك شرف بلادي.

وتلقى أردوغان دعماً كبيراً من رئيس الجمهورية عبد الله غول على موقفه في دافوس عندما قال الأخير إن أردوغان أجاب بما يتطلبه الموقف. كما تلقى أردوغان دعماً كبيراً من رسائل التضامن من مسؤولين في الدول العربية، والإسلامية على موقفه هذا.

وكانت لافتة عناوين الصحف التركية التي تناولت حادثة دافوس في اليوم التالي: "ماتت روح دافوس"؛ حرييت Hurriyet. "صدمة في دافوس"؛ ميللييت Milliyet. "رياح قاسم باشا في دافوس"؛ راديكال Radikal، في إشارة إلى أن أردوغان ترعرع في منطقة قاسم باشا في إسطنبول المعروفة بمظاهر القوة والشجاعة. "صفعة تاريخية"؛ يني شفق Yeni Safak. "ردّة فعل تاريخية"؛ ستار Star. "صفعة عثمانية لإسرائيل"؛ زمان Zaman. "حلال عليك"؛ ينيتشاغ Yenicag. "درس تاريخي من أردوغان إلى بيريز"؛ تركيا Türkiye. "أحد ما كان يجب أن يقول هذا"؛ بوستا Posta.

لم يمنع موقف أردوغان من حماس بوصفها ممثلاً شرعياً منتخباً للشعب الفلسطيني من استمرار اللقاءات مع رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس. بل إن عباس قام في 2009/2/7 بزيارة إلى تركيا التقى خلالها المسؤولين الأتراك. وقد أجمعت الصحف التركية على أن الأتراك أبلغوا عباس ضرورة تشكيل حكومة وحدة وطنية، وإشراك حماس في العملية السلمية. لكن الزيارة مع ذلك أعطت انطباعاً لدى الصحفيين الأتراك الذين اجتمعوا مع عباس أن الأخير ينظر بفتور إلى الدور التركي حين صرح بأنه لا يمكن قبول أي وساطة غير الوساطة المصرية، وأنه يرفض تدخل أي طرف غير عربي في القضايا العربية. وبالرغم من أن عباس قال إنه لا يقصد تركيا بهذا التصريح، إلا أن أقواله تلك قد تركت انزعاجاً لدى الدبلوماسية التركية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن العديد من الأتراك تظاهروا في إسطنبول وأنقرة، في حدث غير مسبوق، احتجاجاً على زيارة عباس إلى تركيا، ووصفوه بأنه شريك في جرائم "إسرائيل" في غزة، ولا يمثل الشعب الفلسطيني، خصوصاً بعد انتهاء ولايته في 2009/1/9.

ويذكر موقف عباس في أنقرة بما كانت أورده جريدة الحياة في 2008/12/31؛ أي بعد أربعة أيام فقط من بدء العدوان الإسرائيلي، عن مصادر فلسطينية مطلعة حول تحفظ عباس على عرض تركيا مبادرة لرعاية حوار يجمع بين الفصائل، وعلى رأسها "فتح" و"حماس"، مشدداً على تمسكه بالرعاية المصرية لجهود المصالحة. وأشارت المصادر إلى أن السفير الفلسطيني في تركيا نبيل معروف أبلغ في 2008/12/29 عباس

باستعداد تركيا للوساطة. وأوضحت أن ردّ الأخير اقتصر على تثمين المبادرة التركية لرأب الصدع الفلسطيني متمسكاً بالمبادرة المصرية في هذا المجال.

3. خلاصات:

ويمكن تلخيص الموقف التركي من القضية الفلسطينية، ومن الوضع في غزة بالذات كما يلي:

أ. وقفت تركيا منذ اللحظة الأولى للعدوان وعلى امتداد أيامه وبعد وقف النار موقفاً مندداً به، ومؤيداً بقوة للشعب الفلسطيني، ومدافعاً عن أهل غزة.

ب. انطلق الموقف التركي من عوامل: الدفاع عن كرامة تركيا، ودولتها في وجه خداع أولمرت لأردوغان، ومن انسجام الحكومة مع إرادة شعبها، ومن خلفية أردوغان الإسلامية والإنسانية، ومن امتلاك الإرادة السياسية، والكرامة الوطنية المنسجمة مع كون الحكومة تعكس الإرادة الشعبية، ومن كون تركيا تملك قرارها المستقل، ومن عوامل القوة ما يجعلها تغلب المصالح الوطنية كما الإنسانية على ما عداها في سياساتها الخارجية، ولا سيما فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية التي تعتبر العصب الذي يجمع تركيا بكل فئاتها.

ج. دعت تركيا، وقبل أي بلد آخر عربي، وغير عربي إلى وقف فوري للنار من الجانبين، كما لعبت دوراً محورياً وعلى امتداد العدوان من أجل التوصل إلى وقف لإطلاق النار، وإلى تهدئة بين "إسرائيل" وحماس، وإلى فتح المعابر بين غزة، وكل من "إسرائيل" ومصر لوصول الإمدادات الغذائية والإنسانية.

د. رفضت تركيا عزل حماس، بل رأت أن الأخيرة تعتبر أمراً واقعاً في غزة؛ فهي تمثل الشعب الفلسطيني لأنها منتخبة عبر انتخابات شرعية وديموقراطية. ولا يمكن التوصل إلى حلّ من دون حماس. غير أن تركيا دعت الحركة في الوقت نفسه إلى التوقف عن إطلاق الصواريخ على "إسرائيل"، والانخراط في العملية السلمية. كما دعت إلى تشكيل حكومة وحدة فلسطينية.

هـ. لم تسع تركيا أو تحاول تجاوز الدور المصري في الأزمة، الذي رأت فيه دوراً أساسياً في هذا المجال. لذا قام مستشار أردوغان أحمد داود أوغلو بدور مكوكي بين القاهرة، وحماس، ودمشق من أجل التوصل إلى وقف لإطلاق النار. وعندما أعلنت "إسرائيل"

وقفاً للنار من جانب واحد كان لتركيا الدور الأساسي في إقناع حماس بإعلان وقف للنار من جانبها أيضاً حتى لا تحمّل مسؤولية أي انفجار جديد للوضع.

و. بدا واضحاً أن المواقف التركية أدت إلى توتر في العلاقات مع "إسرائيل"، ولا سيما بعد حادثة دافوس. ومع ذلك لم تلجأ الحكومة التركية إلى أي تدبير عملي مثل قطع العلاقات الدبلوماسية مع "إسرائيل" أو تخفيض مستواها، أو إبطال أي من الاتفاقات الثنائية الاقتصادية أو العسكرية بينهما. وقال أردوغان إن العلاقات بين الدول لا تتقرر في لحظات الغضب. فيما أشار تصريح لمسؤول عسكري تركي إلى أن المصالح الوطنية لتركيا هي التي تقرر اتجاه أي خطوة.

ز. طرحت المواقف التركية من العدوان على غزة، وانحيازها إلى الشعب الفلسطيني مسألة استمرارية الدور التركي الوسيط بين "إسرائيل" وسورية والفلسطينيين. وهنا يمكن القول إن عدم لجوء تركيا إلى أي تدبير عملي ضد "إسرائيل" يعكس استمرار توازن سياستها الخارجية في اتجاه الحفاظ على علاقات جيدة مع الجميع. وكما أن الحرص على علاقات جيدة مع "إسرائيل" لا يعني السكوت على جرائمها، فإن التنديد بها لا يعني قطعاً للعلاقات معها. فالعلاقات المركبة والمعقدة لتركيا التي ورثها حزب العدالة والتنمية تحول دون كسر أي علاقة مع أي طرف؛ فضلاً عن أن تعددية البعد في السياسة الخارجية التركية هي استراتيجية رسمها حزب العدالة والتنمية بنفسه. وفي ظلّ عدم امتلاك أي دولة مواصفات الوسيط التي تمتلكها تركيا، فسيفقى الدور التركي الوسيط حاجة قائمة في أي عملية تسوية مستقبلية؛ سواء بين "إسرائيل" والعرب، أم بين الفلسطينيين أنفسهم.

ح. لا يتوقع أن تترك المواقف السلبية التركية من "إسرائيل" أثراً سلبياً على علاقات أنقرة مع "إسرائيل" ومع الغرب. فالدولة التركية تمثل ضرورة وحاجة لوجود "إسرائيل" في المنطقة. وقد قال باباجان إن وجود "إسرائيل" في المنطقة من دون تركيا سيكون أصعب؛ إذ لا يمكن لـ "إسرائيل" أن تجازف بخسارة أول وأكبر دولة مسلمة، اعترفت بها وما تزال في سنة 1949، فيما هي محاطة ببحر عربي معاد بالرغم من كل اتفاقيات التسوية التي حصلت. كما أن الغرب غير مستعد لخسارة بلد مهم مثل تركيا، عضو في حلف شمال الأطلسي، ويحكمه نظام علماني. ولعل مكان القوة هذه التي تمتلكها تركيا، علاوة على العامل الأيديولوجي، تعدّ من العوامل التي جعلت تركيا قادرة على اتخاذ مواقف لم يقترب منها حتى بعض العرب، في انتقادها للدولة العبرية.

ط. بدا واضحاً أن خسارة "إسرائيل" كانت تاريخية على الصعيد الشعبي التركي. وقد وجد الشعب التركي بكل فئاته الإسلامية، والعلمانية، واليسارية، واليمينية العدوان الإسرائيلي على غزة فرصة سانحة للتعبير عن الكراهية الكامنة في داخله لكل التاريخ الإسرائيلي الحديث الفاض بالمجازر ضدّ الشعب الفلسطيني؛ إذ عمت التظاهرات والاعتصامات الاحتجاجية كل المدن التركية وعلى امتداد أيام العدوان مطالبةً بوقف العدوان. وهذا التحول النوعي في المزاج التركي لا يمكن إلا أن يؤخذ في الاعتبار من جانب الطبقة السياسية التركية في أي موقف مستقبلي من القضية الفلسطينية، ومن التطورات الشرق أوسطية عموماً.

ي. لعل من أهم النتائج التي أفضى إليها الموقف التركي من العدوان الإسرائيلي هو تعزيز اللحمة بين الشعبين؛ التركي والعربي، بل والفلسطيني خصوصاً، والذي طوى بنسبة كبيرة جداً صفحة من الرواسب، والحساسيات التاريخية والقومية، تراكمت على امتداد العقود التي تلت الحرب العالمية الأولى. ويمكن للعرب والأتراك، إن حسنت النوايا، أن يبنوا على المواقف التركية الإيجابية وعلى حسن استقبال الشارع العربي لها، مرحلةً جديدةً من التعاون والتنسيق لما فيه المصالح المتبادلة، ومواجهة التحديات المشتركة.

ثانياً: الموقف الإيراني:

وقفت إيران منذ اللحظة الأولى للعدوان على غزة إلى جانب الشعب الفلسطيني، وحركة حماس، ودعا مسؤولوها في جميع تصريحاتهم وخطبهم إلى وقف العدوان، وفتح المعابر، وإرسال المساعدات الإنسانية. ولم تخل الخطب والمواقف الإيرانية من تحميل دول عربية وإسلامية مسؤولية المشاركة في حصار غزة والعدوان عليها. كما كان للشعب الإيراني تحركات واسعة يومية تأييداً لغزة، وتنديداً بالعدوان.

1. الموقف الإيراني في ضوء التصريحات الرسمية والتظاهرات الشعبية:

اعتبرت طهران، منذ البداية، أن العدوان على غزة يمثل بدايةً لتطورات كبيرة في المنطقة. واتهم الرئيس الإيراني محمود أحمددي نجاد Mahmoud Ahmadinejad في رسالة إلى الشعوب الحرة أن قادة الاستكبار يؤيدون الجرائم في غزة. وقال إن من

يربطون مصالحهم بالصهاينة سيذهبون معهم إلى الجحيم. واستدعى وزير الخارجية منوشهر متكي Manouchehr Mottaki البعثات الدبلوماسية الأجنبية، وأبلغها أن جرائم "إسرائيل" مثلها مثل جرائم البوسنة. وقال: إن الدول الإسلامية والعربية تتحمل مسؤولية كبيرة تجاه ما يجري. وقال رئيس مجلس تشخيص مصلحة النظام هاشمي رفسنجاني Hashemi Rafsanjani أنه يجب اتخاذ إجراءات حاسمة ضد الكيان الصهيوني مؤكداً بأن فلسطين ستتححر¹².

كما دعت طهران جامعة الدول العربية إلى تحمل مسؤولياتها، وجاء ذلك على لسان أحمدى نجاد الذي تساءل متى ستتحرك الجامعة العربية؟ أليس الفلسطينيون عرباً؟ كذلك انتقد صمت الأمم المتحدة. وقال: إن الصهاينة يعتبرون غزة الحلقة الأضعف، ويريدون استرداد ماء وجههم.

وقال رئيس مجلس الشورى الإيراني علي لاريجاني إن المخطط الصهيوني يستهدف كل العرب. ولفت في إشارة مهمة أن "قضية غزة ترتبط بأمن إيران القومي، واستقلال إيران معرض للخطر في حال نجاح الصهاينة في تخطي هذه المرحلة... علينا الدفاع عن غزة من منطلق ديني ووطني". وقد انتقد لاريجاني مصر، وقال: إن موقفها لا يساعد على تسوية أزمة غزة، بل يزيدتها تعقيداً. واتخذ مجلس الشورى قراراً يلزم الحكومة الإيرانية بتوظيف كل إمكانياتها الإقليمية والدولية، لمواصلة الدفاع عن الشعب الفلسطيني.

وفي خطبة الجمعة في 2009/1/2 شدد رفسنجاني على دعم الفلسطينيين وتسليحهم للدفاع عن أنفسهم. واتهم وزير الخارجية منوشهر متكي بعض الدول في المنطقة بأنها أصبحت سمسرة للكيان الصهيوني، فيما وصف عضو مجلس الخبراء أحمد خاتمي Ahmad Khatami الرئيس المصري حسني مبارك بالحاكم المجرم¹³.

وتوجه الأمين العام لمجلس الأمن القومي سعيد جليلي Saeed Jalili إلى دمشق في 2009/1/2 لإجراء مشاورات مع المسؤولين السوريين. كما وصل جليلي إلى بيروت في 2009/1/4 والتقى رؤساء الجمهورية والبرلمان والحكومة، والأمين العام لحزب الله حسن نصر الله، وبحث معهم الوضع في غزة. وصرح جليلي أنه يجب وقف العدوان ورفع الحصار، واعتبر أن أحداث غزة كشفت الأطراف التي تعمل لترويح فتن مزيفة بين عربي وأعجمي، وبين سني وشيعي¹⁴.

وفي 2009/1/5 استقبل مساعد وزير الخارجية المصري للشؤون الآسيوية حسين هويدي، رئيس مكتب رعاية المصالح الإيرانية في القاهرة حسين رجبى Hossein Rajabi بناءً على طلب من الأخير وسلمه رسالة من متكي إلى أبو الغيط. ودعا متكي في الرسالة إلى تعاون مصر مع إيران من أجل إنشاء مستشفى ميداني إيراني يقدم المساعدة لجرحي غزة في أقرب نقطة ممكنة من غزة على الأراضي المصرية. وقال المتحدث باسم وزارة الخارجية الإيرانية حسن قشقاوي Hassan Qashqavi أن إيران تتوقع من مصر مضاعفة جهودها نظراً لعمق مأساة غزة، والموضوع لا يتعلق لا بالسنة، ولا بالشعبة. وقال قشقاوي: إن إيران تدعم فلسطين منذ قيام الثورة.

وفي 2009/1/8 التقى سعيد جليلي في أنقرة مع المسؤولين الأتراك في تنسيق إيراني - تركي، خصوصاً في ظلّ الموقف التركي المندد بالعدوان والمدافع عن أهل غزة. وفي الوقت نفسه التقى لاريجاني في دمشق مع الرئيس السوري بشار الأسد، وغيره من المسؤولين السوريين. كما التقى مع خالد مشعل؛ رئيس المكتب السياسي لحركة حماس، ورمضان شلح؛ الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي، وأحمد جبريل؛ الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة. وقال لاريجاني: إن الهدف من العدوان هو كسر المقاومة، لكنه لن يتحقق أبداً.

ودعا مرشد الثورة الإيرانية علي خامنئي إلى دعم قطاع غزة محذراً الدول التي لا تساعد من التدايعات الخطيرة لمواقفها وتدارك أخطائها الفادحة. وقال خامنئي: "إن هدف الاستكبار من إثارة هذه الحرب إجبار المنطقة على الاستسلام، والطاعة لأوامره"¹⁵.

وطالب الرئيس أحمددي نجاد مصر بتحديد موقفها¹⁶، وقال إنه لو كانت الحكومة المصرية مهتمة بمصير الشعب الفلسطيني لكانت فتحت المعابر مع غزة، وأضاف إن على الدول العربية أن تضغط على "إسرائيل" لا على حماس. ووصف علاء الدين بروجردي Alaeddin Boroujerdi رئيس لجنة الأمن والسياسة الخارجية الإيراني مواقف مصر والسعودية من العدوان بـ "السيئة التي لا تتناسب مع مطالب شعبيهما" وقال: إن أي مشروع للسلام لا يهتم بوجهات نظر حماس سيكون فاشلاً. كما انتقدت إيران "ضعف" القرار الصادر عن مجلس الأمن ورأت أنه جاء متأخراً.

وأوضح المتحدث باسم الخارجية الإيرانية حسن قشقاوي أن المحاور الأربعة للتحركات الدبلوماسية الإيرانية هي: إنهاء العدوان، والانسحاب الفوري، وفك الحصار، والاهتمام بالمساعدات الإنسانية¹⁷.

وفي سياق آخر، اضطرت سفينة "روح الإنسانية" الإيرانية التي أبحرت من ميناء لارنكا لكسر الحصار على غزة محملة بمواد غذائية وطبية إلى العودة من عرض البحر بسبب أعطال تقنية. كما اعترضت "إسرائيل" سفينة إيرانية على بعد 20 ميلاً من سواحل غزة، وكانت السفينة غادرت ميناء بندر عباس الإيراني قبل 13 يوماً في طريقها إلى غزة.

ودعت طهران العالم إلى قطع علاقاته مع "إسرائيل": إذ قال علي لاريجاني رئيس البرلمان الإيراني أثناء لقائه مع المسؤولين الأتراك في 2009/1/13 إن على العالم قطع علاقاته مع "إسرائيل". وحرّم خامنئي، من جانبه، شراء السلع التي تؤدي إلى تقوية الكيان الصهيوني من كل دول العالم¹⁸. ودعا أحد مستشاري خامنئي، يحيى رحيم صفوي Yahya Rahim Safavi، الذي كان قائداً للحرس الثوري، إلى استخدام سلاح الطاقة للضغط على "إسرائيل" والغرب.

وفي إطار الحركة الدبلوماسية الإيرانية الناشطة نقل سعيد جليلي رسالة شفهية إلى أمير قطر حول الأوضاع. وبدوره قال متكي إن إيران تدعم أية مبادرة توافق عليها حماس، وأهالي غزة.

وفي منتصف كانون الثاني / يناير 2009 وجّه الرئيس الإيراني أحمددي نجاد رسالة إلى الملك السعودي يدعو فيه إلى كسر حاجز الصمت متهماً بعض الدول العربية، والإسلامية بدعم الإبادة في غزة. كما وجه نجاد رسالة إلى جنود الاحتلال الإسرائيلي دعاهم فيها إلى عصيان قادتهم¹⁹.

وفي 2009/1/17 شهدت قطر قمة شارك فيها سبعة زعماء عرب إلى جانب الرئيس الإيراني أحمددي نجاد، والسنغالي عبد الله واد Abdoulaye Wade، ونائب رئيس الوزراء التركي بصفته مراقباً. وتمثل القمة بلا شك انتصاراً لطهران، والقوى المناوئة لمحور الاعتدال العربي. ذلك أن مشاركة طهران بقمة عربية في الجوهر يجسد ثقلها في المعادلات الإقليمية والفلسطينية خصوصاً.

وقد ألقى أحمدى نجاد كلمة أمام القمة ندد فيها بالحصار الصهيوني الذي سبق العدوان على غزة، وبآلة الحرب الصهيونية التي دكت القطاع جواً وبراً وبحراً، ولم تسلم منها المستشفيات والمدارس والمؤسسات الصحفية، معتبراً أن العدوان الذي استخدمت فيه "إسرائيل" الأسلحة المدمرة والمحرمة كان انتهاكاً صارخاً للقوانين والأعراف الدولية. وقال: إن العدوان على غزة هو تكرار لعدوان الكيان الصهيوني على لبنان صيف 2006، ومن قبله على جنين ودير ياسين، بهدف إغراق المنطقة في حالة من عدم الاستقرار والأمن، وإحداث فجوة بين الشعوب والقيادات. وشدد على أن الدول الغربية والأوروبية، التي ساندت "إسرائيل" ودعمتها، شريكة في الحرب على غزة، والجرائم التي ارتكبت، مشيراً إلى أن فلسفة الكيان الصهيوني تكمن دائماً في الاحتلال وارتكاب الجرائم.

ودعا أحمدى نجاد في كلمته إلى الوقف الفوري للعدوان على قطاع غزة، وانسحاب القوات الصهيونية منه فوراً وبشكل كامل، ورفع الحصار، وإيصال المساعدات الإنسانية، ونقل الجرحى للعلاج بالخارج. وطالب المجتمع الدولي بالإسراع بمعاينة "إسرائيل" على جرائمها، وتشكيل محكمة خاصة لهذه الغاية. وقال: إن الشعوب في منطقتنا لديها مطلب، وهو قطع العلاقات مع "إسرائيل". وأعرب الرئيس الإيراني عن أسفه لكون مؤسسات دولية منوط بها حفظ السلم، ونشر العدل، وإزالة العدوان لم تحرك ساكناً للتصدي لكل ذلك، ولذلك يتعين إجراء التعديلات اللازمة عليها. ورأى أن عدوان الكيان الصهيوني على غزة هو مؤامرة ضد الأمة وشعوبها لتحقيق أهداف مشؤومة. وأكد أن مبررات الكيان الصهيوني بشأن الحرب على غزة بسبب إطلاق صواريخ المقاومة غير مقبولة وليست صحيحة، مشدداً على أن المقاومة حق لكل شعب محتل، موضحاً أن الحرب على غزة فشلت، وأن ذلك يمثل فشلاً للكيان الصهيوني ومن يقف وراءه.

ووصف أحمدى نجاد ما يجري في غزة بأنه مؤامرة كبرى "يجب ألا نسمح بتنفيذها، لكون الكيان الصهيوني يستهدف إحداث الفرقة في عالمنا الإسلامي والعربي، وعلينا أن ننتبه لذلك، ونوحد جهودنا المشتركة لإفشال المؤامرة، والوقوف بجانب الشعب الفلسطيني". وقال إن لدى الحكام العرب صلاحيات واسعة لا بد أن يستثمروها لصالح فلسطين، وإن بإمكانهم ممارسة الضغوط على الكيان الصهيوني، والتلويح بقطع العلاقات الدبلوماسية، وكل أشكال التعاون الاقتصادي والسياسي معه. وتساءل كيف

أن 22 دولة عربية تتفرج على شرذمة من الفاسدين جاؤوا من أقصى العالم ليسلبوا شعباً أرضه، ويحتلوها ويمارسوا القتل يومياً؟.

كما انتقد أحمددي نجاد صمت الإدارة الأمريكية حيال ما يجري في غزة من أحداث دامية، معتبراً ذلك مؤامرة تستهدف الأمة يتوجب التصدي لها بمواقفنا المشتركة في العالم العربي والإسلامي. وطالب الإدارة الأمريكية الجديدة بتغيير السياسة الأمريكية في المنطقة بشكل جذري، بما في ذلك السياسات الاقتصادية لتكون في صالح أمريكا والمنطقة معاً، موضحاً أنه إذا لم تغير الإدارة الأمريكية الجديدة سياستها في المنطقة فستكون هناك جرائم كثيرة. ووصف الرئيس الإيراني اقتراح أمير قطر إنشاء صندوق لإعمار غزة بأنه بناء، مكرراً ووقوف الشعب الإيراني دائماً مع قضية الشعب الفلسطيني العادلة ومقاومته الباسلة²⁰.

وفي 18 كانون الثاني / يناير دعا الرئيس الإيراني محمود أحمددي نجاد، أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، والرئيسين السوري بشار الأسد والسوداني عمر البشير، إلى العمل لتكون القرارات التي ستتخذ في قمة الكويت الاقتصادية في اليوم نفسه، مكملة لقرارات قمة الدوحة حول غزة.

من جهة أخرى، أبدى حبيب الله عسكر أولادي Habibollah Asgar-Owadi، وهو ممثل مرشد الجمهورية الإيرانية آية الله السيد علي خامنئي، استعداد "لجنة إغاثة الإمام الخميني" لإعمار غزة "مستفيدة في ذلك من خبراتها السابقة في إعادة إعمار لبنان بعد عدوان تموز/ يوليو 2006"²¹.

وبعد انتهاء العدوان قدم الرئيس نجاد تهانيه إلى خالد مشعل بمناسبة انتصار المقاومة الفلسطينية، وقال إن صمود المقاومة يواصل مسلسل الانتصارات التي حققتها، واعتبر أن انسحاب قوات الاحتلال الصهيوني من غزة وكسر الحصار وفتح المعابر تمهد لإكمال تلك الانتصارات²². واعتبر رئيس مجلس الشورى الإيراني علي لاريجاني، أن "انتصار غزة ألحق الهزيمة بجميع الأنظمة الاستخباراتية الإقليمية" وأضاف: "إن انتصار غزة يمثل بداية لهزيمة وانهيار إسرائيل"²³. وقال النائب الأول للرئيس الإيراني برويز داودي Pervez Davoudi خلال لقائه سفير تركيا لدى طهران سليم كارا عثمان أوغلو Salim Kara Osman Oglu، إن "المعادلات الإقليمية تغيرت بعد الهجوم الإسرائيلي الأخير في غزة"، منوهاً بموقف تركيا خلال هذا العدوان.

بعد أسبوعين على انتهاء العدوان الإسرائيلي قام رئيس المكتب السياسي لحركة حماس خالد مشعل بزيارة إلى إيران. والتقى مشعل مع مرشد الثورة السيد علي خامنئي، وقال إنه اتفق معه حول كيفية مشاركة إيران في إعادة إعمار غزة عقب الحرب الإسرائيلية عليها. ونقلت وكالة مهر للأخبار (MNA) Mehr News Agency شبه الرسمية عن مشعل تأكيده خلال مراسم الاحتفاء بقيادة المقاومة الإسلامية الفلسطينية في جامعة طهران، على "استمرار المقاومة ضد الكيان الصهيوني... وتعزيز التضامن بين المقاومة الفلسطينية، والجمهورية الإسلامية الإيرانية من أجل استخدام الإمكانيات لتحرير فلسطين المحتلة، والقدس الشريف". ورأى مشعل أنه يجب "توخي اليقظة، والحذر في كل لحظة والتأهب لأي هجوم إجرامي جديد من جانب العدو الصهيوني"، مشدداً على أن "الفلسطينيين اليوم يرون في المقاومة طريقهم الوحيد لإنقاذ فلسطين والغلبة على الصهاينة". وتابع "إننا نعدّ العدة لتحرير فلسطين، كل فلسطين، واستعادة القدس، وضمان عودة اللاجئيين وتحرير الأسرى... وبعون الله تعالى سنحرر القدس ونصلي هناك".

وكان مشعل التقى أيضاً، الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد الذي دعا إلى "الحفاظ على المقاومة وتعزيزها في فلسطين حتى تحقيق النصر النهائي". وقال إن "الصهاينة هزموا، ولن يتخلوا عن المكيدة حتى وهم في ذروة الهزيمة، ومن المحتمل أن يقوموا بعدوان آخر"، معتبراً في الوقت ذاته أن "جهود مقاضاة زعماء الكيان الصهيوني يجب أن تتابع بكل قوة... إضافة إلى مقاطعة البضائع الصهيونية".

وبعد بضعة أيام على زيارة مشعل زار الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي رمضان عبد الله شلح إيران، والتقى قادتها. وقال السيد خامنئي، خلال استقباله شلح، إنه "في الساحة السياسية لا ينبغي الاستسلام، والانصياع لإرادة العدو، وإنما من خلال التعويل على القوة الذاتية، كما هي الحال في الساحة العسكرية، يجب حمل العدو على الخضوع لإرادتنا". وحذر خامنئي من أن "إسرائيل"، وبعد انتهاء حرب غزة، تسعى إلى التأثير على الرأي العام في القطاع عبر الحرب النفسية، والإعلامية، من أجل اتهام المقاومة الإسلامية بأنها المسؤولة عن محنة السكان ومعاناتهم. وأضاف أن "إسرائيل تقترب من الأقول يوماً بعد آخر"، لافتاً إلى أن "أمريكا وأوروبا غرستا الكيان الصهيوني في الشرق الأوسط من أجل الهيمنة على هذه المنطقة، إلا أنه الآن وبعد مضي 60 عاماً فقد وصل هذا الكيان إلى حد أنهم يريدون من أجل الحفاظ على بقائه، أن يجلبوا سفناً

حربية من أوروبا وأمريكا، لتنتشر على السواحل القريبة من الأراضي المحتلة“. وتابع
 ”الآن وقد برزت مؤشرات الوعد الإلهي، فإن إيماننا القاطع والراسخ هو أننا إذا وصلنا
 المسيرة على هذا المنوال فإن النصر النهائي سيتحقق في المستقبل غير البعيد“.

وفي المقابل أعرب شلح عن ”شكره الجزيل لدعم ومساندة الجمهورية الإسلامية
 الإيرانية للفلسطينيين في مواجهة الكيان الصهيوني، وبالأخص خلال العدوان الأخير
 على غزة“. وأوضح شلح أن ”الكيان الصهيوني كان قد رسم لنفسه عدة أهداف في
 عدوانه على غزة، وقد فشل في تحقيق أي من أهدافه في هذا العدوان بفضل المقاومة
 الشعبية، والمقاومة الإسلامية في غزة“، مشيراً إلى أن ”العدو ورغم الدراسات التي
 أجراها عن نقاط ضعفه في حرب تموز ضد لبنان، والتجارب التي اختزنها، لم يتمكن من
 تحقيق أهدافه، حيث كان إنجازُه الوحيد قتل النساء والأطفال“.

واعتبر الأمين العام للمجلس الأعلى للأمن القومي الإيراني سعيد جليلي، خلال لقائه
 شلح، أن ”إسرائيل“ الآن أضعف من أي وقت مضى، مشيراً إلى أن ”طبيعتها الإجرامية
 قد انكشفت للرأي العام العالمي“. وشدد جليلي على أهمية إعادة إعمار غزة، ووحدة
 الصف الفلسطيني في مواجهة ”إسرائيل“²⁴.

2. خلاصات:

أ. وقفت إيران منذ اللحظة الأولى إلى جانب أهل غزة وحركة حماس، انسجاماً مع
 مواقفها المعادية للدولة العبرية. وكان الموقف جامعاً على الصعيدين الرسمي والشعبي،
 وتجلّى ذلك في التصريحات الصادرة عن أعلى المراجع السياسية والدينية، وفي التحركات
 الشعبية الداعمة. ومن هنا فقد دعت إيران إلى وقف فوري للنار، وفتح معابر قطاع غزة،
 ومنها معبر رفح.

ب. زهبت كثير من التحليلات إلى القول بأن ”إسرائيل“ ستغتنم الفترة الانتقالية قبل
 استلام الرئيس الأمريكي المنتخب باراك أوباما الحكم؛ لتوجه ضربة خاطفة إلى إيران
 تقضي بها على برنامجها النووي أو تؤخره سنوات عدة. وقد عزز ذلك تصريحات
 للرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز²⁵، وتصريحات لوزيرة الخارجية الأمريكية
 كوندوليزا رايس اعتبرت فيها أن حماس تقاتل بالوكالة عن إيران، التي تسعى لامتلاك
 قنبلة نووية لتدمير ”إسرائيل“، وزعزعة استقرار الشرق الأوسط²⁶.

- ج. رأت إيران أن "إسرائيل" تهدف من حربها على غزة إلى القضاء على حماس وفصائل المقاومة الفلسطينية مما يضع الملف الفلسطيني تحت السيطرة من جهة، ويجعل الرئيس الأمريكي الجديد، من جهة أخرى، أكثر استعداداً للتركيز على ملف إيران النووي الذي يقلق "إسرائيل" وتراه الأخيرة تهديداً وجودياً لها ولأمنها.
- د. عملت إيران على تنسيق المواقف مع القوى التي وقفت مع حماس، ونشطت الدبلوماسية الإيرانية عبر زيارات مكوكية ومتواصلة لكل من وزير خارجيتها، ورئيس مجلس الشورى، وأمين عام مجلس الأمن القومي. وبرز في هذا الإطار التنسيق الإيراني مع تركيا، التي زارها جليلي، ومتكي، ولاريجاني، وكذلك مع سورية.
- هـ. برز الدور الإيراني واضحاً من خلال مشاركة طهران عبر رئيسها في قمة غزة التي عقدت في الدوحة، وشارك فيها العديد من الدول العربية وتركيا فيما قاطعتها دول "الاعتدال" العربية، إلى جانب رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس.
- و. حاولت إيران إرسال مساعدات مباشرة إلى غزة عبر البحر، وعبر معبر رفح المصري. لكن "إسرائيل" منعت السفن التي أرسلتها إيران من الاقتراب من غزة، فيما رفضت مصر استقبال المساعدات الإيرانية أو إقامة مستشفى متنقل على الأراضي المصرية على مقربة من حدود غزة. ولا شك أن العامل الجغرافي كان عاملاً حاسماً في عدم تمكن إيران من ممارسة دور مباشر في تقديم المساعدات إلى غزة أثناء العدوان في ظل العداء الإيراني - الإسرائيلي والخلاف الإيراني - المصري.
- ز. أظهر العدوان على غزة بصورة واضحة الخلافات بين إيران، وبعض الدول العربية مثل مصر، والسعودية. وتجلى ذلك في الانتقادات المتبادلة بين مسؤولي هذه البلدان.

ثالثاً: موقف منظمة المؤتمر الإسلامي:

تابعت منظمة المؤتمر الإسلامي تطورات العدوان على غزة منذ اللحظة الأولى. وبرز على امتداد العدوان المواقف المتتالية لأمينها العام أكمل الدين إحسان أوغلو Ekmeleddin Ihsanoglu المنددة بالعدوان. وفور وقوع العدوان أصدر إحسان أوغلو بياناً دان فيه العدوان، ودعا المجتمع الدولي إلى التحرك لوضع حد للاستهتار الإسرائيلي

بالقيم الإنسانية، والقوانين والمعاهدات الدولية²⁷. ودعا إحسان أوغلو في رسائل إلى الاتحاد الأوروبي، والخارجية الأمريكية إلى الضغط على "إسرائيل" لوقف عدوانها²⁸.

وفي اليوم الأخير من سنة 2008 عقد المندوبون الدائمون في الأمانة العامة للمنظمة في جدة اجتماعاً تقرر فيه عقد اجتماع لوزراء خارجية الدول الإسلامية في 2009/1/3. وانتهى اجتماع وزراء الخارجية إلى الدعوة إلى تنسيق المواقف مع جامعة الدول العربية، وسبل تقديم المساعدات الإنسانية إلى غزة. لكن الاجتماع رفض الطلب الإيراني لعقد مؤتمر قمة إسلامية، فيما أيدته قطر. واكتفى البيان الختامي للاجتماع بالتعبير عن خيبة أمله من عدم قيام مجلس الأمن الدولي بواجباته، ودعا البيان إلى وضع غزة تحت مظلة الأمم المتحدة "لوقف تصعيد النزاع". وقال البيان: إنه في حال فشل مجلس الأمن في وقف العدوان فيجب دعوة الأمم المتحدة للاجتماع. وأكد البيان دعمه "للسلطة الفلسطينية، ومؤسساتها الشرعية".

ويلاحظ من البيان الصادر أن منظمة المؤتمر الإسلامي بدت عاجزة عن مساندة الشعب الفلسطيني في غزة. إذ لم يشر البيان الختامي، ولو بكلمة، إلى حركة حماس ومقاومتها في غزة. كما أن المؤتمر اكتفى بالنداءات لتحركات دبلوماسية، ولم ينجح في عقد قمة على مستوى الرؤساء. كما لم يدع إلى اتخاذ أي إجراء ضاغط على "إسرائيل" من جانب الدول الأعضاء فيه من قبيل قطع العلاقات الدبلوماسية مع "إسرائيل" من جانب دولها المعترفة بها، أو اتخاذ إجراءات اقتصادية أو ما إلى ذلك. ورمى المسؤولية على الأمم المتحدة.

وفي 2009/1/15 اجتمع برلمانيو الدول الإسلامية في إسطنبول بدعوة من رئيس البرلمان التركي كوكسال توبتان Köksal Toptan بصفته الرئيس الدوري لاتحاد البرلمانين المسلمين. ودعا المؤتمر إلى وقف النار في غزة، وانسحاب "إسرائيل"، منها وفتح المعابر، وإرسال المساعدات الإنسانية إلى غزة. لكن المؤتمر لم يدع أيضاً، على غرار مؤتمر وزراء الخارجية، إلى أي عقوبات على "إسرائيل" أو إلى أي إجراء من جانب الدول المسلمة المعترفة بها.

أما الرئيس الدوري لمنظمة المؤتمر الإسلامي الرئيس السنغالي عبد الله واد فدعا إلى إرسال المزيد من المساعدات الإنسانية إلى غزة، وذلك بعد يومين من وقف النار فيها²⁹.

ومن الواضح أن منظمة المؤتمر الإسلامي بدت، مثل جامعة الدول العربية، عاجزة عن التحرك الفعال بل حتى عن عقد مؤتمر قمة طارئ بالرغم من استمرار العدوان، وبوحشية كاملة طوال 22 يوماً. واكتفت المنظمة بالدعم الكلامي، والبيانات، والتصريحات التي كان يصدرها أمينها العام، وبعض المساعدات الإنسانية التي وقفت عند المعابر المغلقة على حدود قطاع غزة.

رابعاً: مواقف دول إسلامية أخرى:

حذرت ماليزيا، التي تتأسس منظمة المؤتمر الإسلامي، من أن التحرك العسكري الإسرائيلي في قطاع غزة قد يقود إلى كارثة إنسانية، ورأت أن العدوان "غير متناسب"³⁰، ودعا رئيس الوزراء الماليزي عبد الله أحمد بدوي Abdullah Ahmad Badawi إلى فرض عقوبات على "إسرائيل"، ورأى أن انتهاك المعايير الأخلاقية يجب أن يكون من ضمن الأسباب التي تدعو إلى فرض عقوبات على دولة ما³¹. وقال إن "إسرائيل" تقوم باعتداءات "مخالفة للقوانين الدولية"، مضيفاً أن "مثل هذه الأعمال تعتبر جرائم حرب وفقاً لما يقضي به الفصل الرابع من معاهدة جنيف الخاص بحماية المدنيين في زمن الحرب"³².

كما عقد البرلمان الماليزي جلسة خصصت لبحث الأوضاع في غزة، وطالب خلالها النواب مجلس الأمن الدولي بتشكيل محكمة جرائم حرب لقادة الحكومة الإسرائيلية³³. ودعت ماليزيا منظمة المؤتمر الإسلامي إلى تشكيل قوة لحفظ السلام، وقال الوزير المعتمد بديوان رئاسة الوزراء أحمد زاهد حميدي Ahmad Zahid Hamidi إنه إلى جانب مقاطعة البضائع الإسرائيلية والأمريكية، فإنه "يتعين على العالم الإسلامي أن يوحد جهوده لإنشاء قوة لحفظ السلام"³⁴.

كما انتقد رئيس الوزراء الماليزي السابق مهاتير محمد Mahathir Mohamad الرئيس الأمريكي باراك أوباما بسبب صمته عن المجازر التي ترتكب في قطاع غزة، وشدد على ضرورة أن "يتوحد العالم جميعاً في التأكيد على رفض السياسة الأمريكية"، ودعا إلى "مقاطعة البضائع الإسرائيلية والأمريكية، سلعاً وأسلحة"³⁵.

وشجبت إندونيسيا العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة، وقالت إن إطلاق الصواريخ الفلسطينية على الأراضي الإسرائيلية هو "دفاع عن النفس". ودعت وزارة الخارجية

الإندونيسية الأمم المتحدة إلى إصدار قرار يطالب "إسرائيل" بوقف اعتداءاتها العسكرية على قطاع غزة³⁶. وقال مسؤول دائرة الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الإندونيسية تشاندرا سالم Aidil Chandra Salim إن "جاكرتا تدين العدوان الإسرائيلي ضد أبناء الشعب الفلسطيني في قطاع غزة"، وتطالب "بوقفه فوراً". وقال سالم إن "إندونيسيا اتخذت قراراً خلال اجتماع وزاري عقد مؤخراً بضرورة الاستمرار في تقديم المساعدات النقدية والطبية والغذائية إلى أبناء قطاع غزة، لإسناد صمودهم ودعمهم في مواجهة العدوان الإسرائيلي". وأكد أن إندونيسيا "تدعم الشعب الفلسطيني حسب قرار الأمم المتحدة 242 و338"، مشيراً إلى أن "الموقف الإندونيسي ثابت لم يتغير بشأن رفض إقامة علاقات مع الاحتلال الإسرائيلي، إلا بعد تحقيق الاستقلال الفلسطيني"³⁷.

كما أدانت باكستان العدوان الإسرائيلي ودعت "إسرائيل" إلى وقف غاراتها التي تأتي "بنتائج عكسية". وجاء في بيان لوزارة الخارجية الباكستانية إن الرئيس الباكستاني آصف علي زرداري Asif Ali Zardari يدين الهجمات الإسرائيلية على قطاع غزة، ويدعو إلى وقف العمليات العسكرية، والعنف الذي تسبب بخسائر في الأرواح. وأضاف البيان نقلاً عن زرداري أن "باكستان تدعو المجتمع الدولي للعمل فوراً على تسوية سلمية وعادلة ودائمة للقضية الفلسطينية"³⁸.

هوامش الفصل الثامن

- ¹ الصحف التركية، 2008/12/28.
- ² جريدة ميللييت، تركيا، 2008/12/31.
- ³ الصحف التركية، 2009/1/5.
- ⁴ الصحف التركية، 2009/1/3.
- ⁵ جريدة زمان، تركيا، 2009/1/19.
- ⁶ السفير، 2009/1/20.
- ⁷ ميللييت، 2009/1/19.
- ⁸ ميللييت، 2009/1/21.
- ⁹ جريدة حرييت، تركيا، 2009/1/23.
- ¹⁰ الصحف التركية، 2009/1/27.
- ¹¹ السفير، 2009/1/30.
- ¹² السفير، 2008/12/31.
- ¹³ السفير، 2009/1/3.
- ¹⁴ السفير، 2009/1/5.
- ¹⁵ السفير، 2009/1/9.
- ¹⁶ السفير، 2009/1/12.
- ¹⁷ السفير، 2009/1/13.
- ¹⁸ السفير، 2009/1/14.
- ¹⁹ السفير، 2009/1/17.
- ²⁰ السفير، 2009/1/17.
- ²¹ السفير، 2009/1/19.
- ²² الخليج، 2009/1/20.
- ²³ السفير، 2009/1/23.
- ²⁴ السفير، 2009/2/12.
- ²⁵ الجزيرة.نت، 2008/9/25.
- ²⁶ الوكالات، 2008/5/1.
- ²⁷ الحياة، 2008/12/28.
- ²⁸ الشرق الأوسط، 2008/12/31.
- ²⁹ الخليج، 2009/1/20.
- ³⁰ الخليج، 2008/12/30.
- ³¹ الخليج، 2009/1/9.
- ³² الجزيرة.نت، 2009/1/14، انظر: <http://www.aljazeera.net/NR/exeres/2FE4A050-D93F-46F1-BA4A-27C470D9C5CD.htm>
- ³³ المصدر نفسه.
- ³⁴ الخليج، 2009/1/6.
- ³⁵ المصدر نفسه.
- ³⁶ الخليج، 2008/12/30.
- ³⁷ الغد، 2009/1/4.
- ³⁸ الخليج، 2008/12/30.